التربية المقارنة(النشأة و التطور) مرحلة الوصف أو الغرض الصفي

في واقع الأمر إن موضوع التربية المقارنة قديم قدم التاريخ، وبدايات البحث فيها غامضة ومن الصعب تحديدها بدقة، ولكن البحث الدقيق المستمر يمدنا بمعلومات تدل على أن تاريخها أقدم مما د نظن وأنه قد يعود إلى عادة زيارة الأفراد والجماعات لدول مختلفة بغرض التجار أو الحرب أو الترفيه أو غير ذلك من الأسباب، كما أن الرحالة في مختلف العصور عاد كثير منهم بحقائق ومعلومات وانطباعات وأفكار عن ثقافات الشعوب المختلفة، ومن الناحية التاريخية يمكن أن نقول أن كتابات التربية المقارنة ومناهج الدراسة والبحث فيها قد مرت خلال تلك العصور بأربع مراحل هي:

- **مرحلة الوصف أو الغرض الوصفى:** تمتد هذه المرحلة من العصور القديمة حتى نهاية القرن الثامن عشر وهي تعتبر الإرهاصات الأولى للتربية المقارنة، وتظهر بوضوح في كتابات القدماء من رحالة ومكتشفين وأدباء ورجال دين وفلاسفة وعلماء، وغالبا ما تعد الكتابات التربوية المقارنة هذه المرحلة عملية وصف عام أو وصف دقيق مفصل لما رأوه عند زيارتهم لبلدان أخرى غير بلادهم، وعموما اتسمت هذه المرحلة بالوصف العام لأشكال الحياة، حيث أن الدراسات التي تمت لم تكن دراسات مباشرة في نظم التعليم بل جاءت إشارات ضمن كتابات تناولت وصف الحياة الاجتماعية والعمرانية للشعوب التي زارها الرحالة والتجار وغيرهم، وقد تطرق الوصف في هذه المرحلة إلى إعطاء فكرة عن نظم التعليم القائمة في ذلك الوقت، وطرق تربية الأطفال وتنشئتهم وعناية الكبار بالصغار، ومن أبرز الرواد في هذه المرحلة:

- **ابن جبير (الأندلس) (1144م-1218م):** تعرف ابن جبير اثناء زيارته للإسكندرية للتعليم هناك فقال عن الاسكندرية: "إن من مناقبها ومفاخرها، المدارس والمحارس (جمع محرس، بمعنى مأوى مخصص للدارسين، والزهاد والمسافرين) الموضوعة فيها لأهل الطب والتعبد يوفدون اليها من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وإجراءا (أي مرتبا) يقوم به في جميع احواله... ثم يتحدث ابن جبير عن بغداد ومجالس العلم بها ومدارسها وأشهرها على

الإطلاق — المدرسة النظامية–

- **ابن بطوطة (المغرب) (304ا–1378م):** لقد كان ابن بطوطة من هواة التنفل والارتحال حتى قضى اربعين سنة من عمره في السياحة والارتحال، بدأ رحلته من تونس حيث عبر الشمال الافريقي ومصر والشام والحجاز، حتى وصل إلى بيت الله الحرام ثم اكمل رحلته بعد ذلك إلى الشرق الاقصى قبل العودة إلى تونس، حيث بدا يسجل لتلك الرحلة التي طالت ويروي غرائب ما راه فيها من عادات الواطنين ومدنهم وتخطيطها، وتعاملهم في البيع والشراء واثارهم ومعتقداتهم، وقد سجل ابن بطوطة رحلته المشهورة في كتابه المشهور "**تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**"، حيث تطرق فيها لوصف المدرسة المستنصرية في بغداد التي كان يدرس فيها مذاهب الفقه الاربعة، كما وصف جامع بن امية واشهر مدرسيه، وطرق تدريسهم، وأشار إلى مدارس الشافعية بدمشق.

- **ابن خلدون (تونس) (332ا–1406م):** لقد تجاوز ابن خلدون كونه عالما من علماء الاجتماع والتاريخ إلى كونه عالما من علماء التربية المقارنة المعدودين الذين سبقو علماء التربية المحدثين بأكثر من خمسة قرون، في الربط بين نظم التعليم و المجتمعات التي يوجد فيها، ففي الكتاب الأول من كتابه المشهور **(كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبرر ومن عاصرهم منه ذوي السلطان الأكبر)** اتبع المنهج المقارن في حديثه عن بلاد العالم المختلفة ونظم التعليم بشكل خاص، وكان منهج ابن خلدون تطوير لمنهج من سبقه مثل ابن بطوطة وابن جبير حيث امتاز عنهم بسعة أفقه وشمولية منهجه وموسوعيته.

ويعترف **بريكمان brikman** على أن ما كتبه ابن خلدون دون تحيز عن أوجه الشبه والاختلاف الثقافي والتربوي في مختلف المجتمعات تؤهله لأن يكون باحثا في التربية المقارنة.

ولعل من أقدم أنواع هذه الكتابات : ما كتبه الرحالة الإغريقي بشياس، الذي كان يستوطن مرسيليا في فرنسا، والذي كان أول من اكتشف الجزر البريطانية. وقد سجله رحلته واكتشافه في كتابه " في المحيط "

– **ماركو بولو:** لقد سجل ماركو بولو رحلته المشهورة في فينيسيا بإيطاليا و زار فيها الشرق الأقصى في كتاب يحمل اسمها ثم سجل رحلته هذه في كتاب يحمل اسمها.

ونسجل هنا أنه في العصور الوسطى كان للمسلمين السبق في هذه المرحلة في وصف الحياة في البلاد، اما دور الغرب فقد كان محدودا، نظرا لانعدام الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي عانت منه أوروبا حوالي قرنين من الزمان.

وقد أعد "**فريديد أجيست هفت**" كتابا في القرن الثامن عشر بعنوان "مقارنة بين النظم التعليمية الانجليزية والنظم التعليمية الألمانية" وضمنه وصفا للمدارس الانجليزية مع مقارنتها بمثيلاتها الألمانية في بعض الجوانب.

وعموما يمكن القول بأن من أهم خصائص هذه المرحلة أنها مرحلة وصف وانطباعات للأفراد، كما أنها تعبر عن التحيز الايديولوجي للثقافات المختلفة التي يكتب عنها الرحالة، ولم تتخللها نفسيرات عميقة ودقيقة لجوهر الاختلافات ولم يقدم لنا فيها تحليلا مستفيضا عن أنظمة التعليم أو غير ذلك.

– **مرحلة القرن التاسع عشر:** تعتبر هذه المرحلة بداية التاريخ العلمي للتربية المقارنة، ويعود تاريخها إلى العقد الأخير من القرن التاسع عشرن عند نشر مارك أنطوان جوليان الباريسي كتابه المعروف "خطة وأفكار أولية عن عمله في التربية المقارنة" الخطوة العلمية الأولى لدراسة التربية المقارنة، فقد حدد أهدافها وطرقها، وأكد على ضرورة الاهتمام بالدراسة التحليلية للتربية في الدول المختلفة بهدف تطوير نظم التعليم بها، ومن هنا بدا اهتمام جوليان بإصلاح نظام التعليم فى فرنسا، ورأى أنه من الضروري أن تعتمد التربية المقارنة على أدوات البحث العلمى.

وعلى هذا الأساس اعتبر جوليان أب التربية المقارنة ومؤسسها، وأن به يبدأ التاريخ العلمى لها، فهو أول من وضع خطة شاملة لدراسة نظم التعليم ومنهجا تحليليا مبنيا على استخدام الاستفتاءات كوسيلة لجمع المعلومات عن نظم التعليم.

وقد حدد جوليان الهدف من التربية المقارنة وهو الدراسة التحليلية المقارنة لنظم التعليم المختلفة يقوم بها الدارس لإصلاح نظم التعليم القومية، بعد إجراء التعديلات والتغييرات التى تتطلبها الظروف المحلية، وتوالت الكتابات في التربية المقارنة بعد ذلك وزادت حتى تحولت إلى دراسة تفصيلية قام بها الأوروبيون عن نظمهم التعليمية وعن النظم القائمة في البلاد المحيطة بهم بهدف الاستعارة أو الاستفادة منها.

كما يعتبر جون جريسكوم **John Griscon** الأمريكى من أوائل الذين اهتموا بالتقارير المتعلقة بالمدارس الأجنبية وبالمناهج المدرسية، فف كتابه ".عام فى أوروبا" والذي نشر عام1919/1918 عرض فيه نتائج ملاحظاته عن المؤسسات التربوية ببريطانيا وفرنسا وسويسرا وايطاليا وهولندا، ولقد كان لهذا الكتاب الأثر الكبير فى تطوير التربية الأمريكية.

أما فكتور كوزن (victor cousin 1867-1892) الذي زار بروسيا ونشر تقريره الشهير "تقرير عن حالة التعليم العام في بروسيا" وهو عبار عن وصف مباشر للنظام التعليمي البروسي. ولقد ترك للقارئ مهمة استخلاص القيمة المقارنة لذلك النظام وذلك بمقارنته بالبلد الذي ينتمي إليه شخصيا.

أما ماثيو أرنولد (Matthew Arnold 1822-1888) المربي الانجليزي كتب تقرير مشهورا بعنوان "المدارس والجامعات في أوروبا"، تناول فيه تطوير التعليم الثانوي في أوروبا والتعليم الثانوي والجامعي في كل من فرنسا، إيطاليا، مدارس سويسرا، وتطوير مدارس ألمانيا لا سيما التربية البروسية التي ازدهرت في القرن 19 تحت رقابة الدولة وسيطردها.

كما أصدر أرنولد أيضا تقارير تناولت النظم التعليمية في دول عديدة، ويرى أنه لا يمكن فهم نظام تعليمي دون دراسة مقارنة، والدراسة المقارنة عنده ليست دراسة تطلب لذاتها، أو لمجرد وصف ما هو موجود، ولكن غايتها الإفادة في إصلاح نظم التعليم وعلاج مشكلاته.

- **أوشنسكي 1824-1870(Ushinsky):** وهو روسي، وكان يعمل أستاذا للقانون، واضطهد من القيصر بسبب محاضراته عن الإصلاح الاجتماعي فعمل بالتدريس ثم صار مفتشا، قرأ ما كتبه المصلحون المربون من الأوروبيين وحاول إدخال وتطبيق ما قراه على المدارس التي يعمل بها.

ويقول نيكولاس هانز و هو حجة في التربية السوفييتية أن أوشنسكي كان مصلحا ديمقراطيا راديكاليا، واستطاع أن يعقد مقارنات واعية عرضها بدقة وتحديد، وقد اعترف أوشنسكي بالفروق القومية وأكد عدم إمكانية نقل التقاليد القومية التي تؤثر في التربية، ولكنه مع هذا اقترح إمكانية نقل أنظمة عقلانية وفكرية من دولة إلى أخري.

ورغم تعدد كتابات التربية المقارنة في القرن التاسع عشر لدرجة يصعب معها حصرها إلا أنها اتصفت بما يلى:

– دار معظم اهتمام الدراسين حول جمع المعلومات من أجل إصلاح نظم تعليمهم المحلية.

– أنها كانت وصفية في معظمها.

– لا تحوي إلا نادرا– نقدا أو تحليلا علميا بقدر ما احتوت على مدح للنظم التعليمية التي أرادوا النقل أو الاستعارة منها.

– كانت تتم في ضوء افتراضات مسبقة وهي أن النظم التعليمية في الدول الأخرى أفضل من تلك التي في دولهم الأهلية في حين أن العكس قد يكون صحيحا.